علـم الكتابة مساءلته، كمـا تقول باربرا جونسـن في مقدمتها للترجمـة الإنجليزية لكتاب دريدا (التشتيـت) (انظر ترجمة المقـال في عبـد المنعم الفيا، صـ 86). والسـؤال الآن: ما هي الموضوعية؟! الموضوعية تعني، من بين ما تعني، البينذاتية (= مـا بين الـذوات). أي إن ما هو موضوعي يجـب أن يتم تداوله بـين الناس وما يبقـى حبيس ذات المتكلم يعـد ذاتيًا. ومن هنا يـرى دريـدا أن أكـبر معانـاة عانتهـا الفينومينولوجيا نجمت مـن موضوعين: وصف الزمانية ووصـف البينذاتية (Derrida 1973, p. 7). الزمـان ينطوي على الحضور ولكن أيضًا على الماضـي والمستقبل (وهما غياب)، ولذا فالزمان يقوم بزعزعة الحضـور والامتـلاء. وأمـا البينذاتية فهي تعنـي الخروج من الكوجيتـو إلى الآخر. وهـذا أيضًا صرف للوعـي من الحضور الذاتـي إلى الوسائـط المادية التـي يستلزمهـا التواصل. وهذا التواصـل (الديالوجـي، البينذاتـي) هـو شـرطٌ للموضوعية. فالفينومينولوجيـا لكـي تؤسـس نفسهـا كعلـم موضوعي لا بد أن تخرج عـن الوعـي الترانسندنتالي الحضـوري الحدسي. والخروج من الذاتي إلى الغيري شرط لتأسيس العلم، لذا يقول دريدا "إن الغيرية (الآخرية) ستكون شرطًا للحضور" (ibid., p. 65)؛ أي لموضوعيـة العلم بوصفه علمًا بديهيًا أصليًا. وكون الغـير شرطًا في الموضوعية فهـذا يعني أن هوسرل مضطر إلى أن يؤسـس الحضـور علـى الغيـاب، والمباشرة علـى التوسط! وهذا ما كشف عنه دريـدا في ممارسته لتفكيك نص هوسرل. فالتفكيك فضـح لتناقضات وتعارضـات النسق الفكري وكيف أنه يؤسس نفسه على ما يحاول نفيه وإلغاءه.

الغيرية هي المصطلح الذي سوف يسميه دريدا لاحقًا بالاختلاف. وهو أهم كلمة في النقد التفكيكي ككل. فالتواصل بوصفه افتراضًا للغير وللآخرين يقف إزاء الكلام النفسي (اللاتواصلي). فالمونولوج قد يكون تواصلاً ولكنه تواصل داخلي ذاتي، وهو "لا-غيري" و"لا-اختلافي" بل هو حضور ذاتي تام (ibid, p. 58).

في الفكر الفينومينولوجي، تتم المحاولات المنهجية من أجل تأسيس الموضوعية في الذاتية. وهذا يعني: كيف يمكن للوعي بوصفه نشاطًا ذاتيًا أن يكون أساسًا للموضوعية. وقد أشرنا إلى أن هوسرل يميز في الوعي بين الفعل والمضمون. ففعل الوعي ذاتي وفردي وخاص بكل كوجيتو، وأما المضمون فمثالي ولا يتأثر بتغير أفعال الوعي. فلو فكرتُ في القضية الهندسية (كل خطين متوازيين لا يلتقيان مهما امتدا) فإن تفكيري فيها ذاتي وخاص بي، ولكن هذه الذاتية لا تؤثر في مضمون القضية، فهي قضية صحيحة دائمًا وأبدًا. يقول دريدا في مقدمته لكتاب هوسرل (أصل الهندسة) "إن السؤال الذي يشغل هوسرل هو: كيف للمعنى الذاتي أن يصبح موضوعيًا وبين ذاتيًا؟" (Derrida 1989, p. 63 & 161).

في كتاب الأفكار، الجزء الأول، يميز هوسرل بين علوم الوقائع وعلوم الماهيات. والأخيرة هي التي تهدف إلى حدس الماهية، ولذا فهي لا تعنى بالواقعة. ففي هندسة طاليس أو إقليدس مثلاً، لا يهم ماذا إذا كان الرجل يرسم على السبورة أو يهلوس أو يحلم، المهم هو الماهيات التي انتهى إليها؛ أي الماهيات التي تكون موضوعًا (= noema) للخبرة بصرف

> يقـرر دريـدا فعـلاً أن موضوعـات الهندسـة – عند هوسـرل– لا يهم إن كان أصلها التكويني مرتبطًا بالواقـع أو كان في خيـال إقليدس أو كان إقليـدس يهلوس! كل هذه الوقائع لا تهم. فما يهم هو ماهياتُ الهندسةِ المثاليةُ.

النظر عن طبيعة هذه الخبرة. فالوقائع لا تهم. فإقليدس مثلاً لا يكشف لنا وقائع تجريبية بل إمكانيات مثالية (Husserl 1983, p. 16). "فالهندسي لا يهتم بالأشكال المحسوسة كما يفعل عالم الطبيعة ... فمفاهيم الهندسة مثالية ولا يمكن أن (تُرى)" (ibid, p. 166). يرى دريدا أن الفرق في بحث موضوع "أصل" الهندسة ليس بين الواقع أو الإدراك من جهة، والخيال أو الهلوسة من جهة أخرى، بل بين الهلوسة والخيال من جهة والتاريخ من جهة أخرى، ويقصد بالتاريخ هنا الوعيَ بالأصل التكويني (التاريخي) للهندسة (Derrida 1989, p. 44). فينومينولوجيًا، المبادئ الهندسية، بل ومبادئ كل علم، لها قيمتها المعيارية وهي مستقلة بشكل راديكالي عن تاريخها؛ فتاريخ كل علم، بما أنه ينتمي للواقع وللوجود ولما هو مادي متغير، يقع تحت طائلة التعليق (ibid, p. 43). ومن ثم فيجب التركيز على المعاني الباطنية للعلم وأما تاريخه فيجب تجاهله (ibid). ولكن هل حقًا أن تاريخ الهندسة مستقل عن الهندسة؟ سوف نعرف بعد قليل أن نص هوسرل يقوض نفسه بنفسه! أي إن النص ينطوي على إقصاء لمفهوم التاريخ واعتماد جوهري عليه في آن معاً.

يقرر دريدا فعلاً أن موضوعات الهندسة – عند هوسرل– لا يهم إن كان أصلها التكويني مرتبطًا بالواقع أو كان في خيال إقليدس أو كان إقليدس يهلوس! كل هذه الوقائع لا تهم. فما يهم هو ماهياتُ الهندسةِ المثاليةُ. فالهلوسة لا تقوض موضوعات الهندسة لأنها ببساطة موضوعات غير واقعية وغير موجودة (بشكل واقعي). ولكن دريدا يتساءل: إذا كانت الماهيات والموضوعات المثالية هذه ليست أفلاطونية (أي، لا توجد في سماء المثل) وإنما توجد في أفعال الوعي القصدي، وأنها لا يمكن أن توجد بشكل سابق (زمنياً على الأقل) على أفعال الوعي الذاتية، وإذا كان لها –أي لتلك الموضوعات الهندسية– تاريخٌ، ألا يدل كل هذا على أنها مرتبطة بالعالم الواقعي وبالوعي الذاتي للهندسي الأول (إقليدس أو طاليس أو أيًا يكن)؟! (ibid, 45).

يحاول هوسرل أن يقوّس (أو يقصي) كلَّ ما هو مادي–حسي أو تاريخي أو لغوي (إشاري) من دراسته لأصل الهندسة ... ولكنه في النهاية يعتمد على كل ما أقصاه! فكيف حدث ذلك؟ لقد سأل هوسرل سؤالاً بسيطًا ولكن الجواب عليه سوف يقوم بخلخلة وتقويض تماسك النص الهوسرلي نفسه. سؤال هوسرل هو: كيف لأفكار ذاتية (نفسية) ظهرت في ذهن أول عالم هندسة أن تتحول إلى منظومة موضوعية من المبادئ المثالية المطلقة؟ يجيب هوسرل على الفور "مقدمًا، نحن نرى أن هذا يحدث بواسطة اللغة، فالجسد اللغوي هو ما يجعل الموضوعية أمرًا ممكنًا" (ibid, p. 161، بتصرف طفيف). هذا "جواب مفاجئ!" يقول دريدا، ثم يكمل: "اللغة إذن هي شرط الموضوعية، اللغة الحية المادية، وهي وسيط لا يمكن الاستغناء عنه لتأسيس موضوعية العلم بل ولتأسيس مفهوم الحقيقة" (ibid, p. 75–76).

في دراسته لأصل الهندسة، سيضطر هوسرل لإلغاء الرد الماهوي والترانسندنتالي وسيعود إلى التاريخ الذي يؤسس هذا العلم. إن الوقائع صارت أمرًا لا مفر منه، فالتاريخ لا ينفصل عن الوجود، والواقعي لا ينفصل عن الماهوي. إن الأصل التكويني لم يعد ممكنًا دراسته في إطار الرد الفينومينولوجي الذي كان هوسرل يلح عليه طويلاً (ibid, p. 46–47).

اللغة تبعا لهوسرل شرط لموضوعية الهندسة ولأي علم. واللغة هنا هي اللغة بوصفها تواصلاً بينذاتيًا. وهوسرل يؤكد في (المباحث) أن "كل جملة وكل علامة تقوم بوظيفة التواصل فهي إشارة" (Husserl 2001, p. 106) وليست عبارة. والإشارة تنطوي على جانب مادي، وهي خارجية، وبعبارة أخرى: هي توسّط لا يكون فيه المدلولُ معطى مباشرة بل يتم استنتاجه؛ أي تأويله وفك شفراته من قبل المستمع.

إن تجلي الكلام وظهوره في شكل ديالوجي يجعله تاريخيًا وزمانيًا. والموضوعية إذن سيكون "لها تاريخها ... بل إن هذا التاريخ مرتبط بالموضوعية ارتباطًا جوهريًا وداخليًا" (Derrida 1983, p. 75). وهوسرل يصادق على هذا الرأي ذاته عندما يقول "إن الموضوعات المثالية توجد –موضوعيا– بفضل التعيّن المادي للتكرار" وإن "التعبير المكتوب يكتسب أهميته في أنه يجعل التواصل بين الأفراد ممكنا ... والعلامات الكتابية يمكن اختبارها حسيا ويمكن أن تقبل التواصل البينذاتي" (ibid).

وهكذا يقوم دريدا بتفكيك نص هوسرل أو بالأحرى، يقوم بتفعيل الدلالات المضمرة والمتناقضة التي تجعل النص مهلهلاً وغير منسجم. فالإشارة التي يلغيها هوسرل يعود ويتسنجد بها من أجل تأسيس موضوعية علم الهندسة.

المراجع:

– الفيّا، عبدالمنعم عجب. في نقد التفكيك: نصوص مختارة مع مقدمة نقدية شاملة (منشورات ضفاف/الأمان/الاختلاف) 2015

– رورتي، رتشارد "التفكيك"، ضمن: نائل، حسام (ترجمة). البنيوية والتفكيك: مداخل نقدية (عمّان: أزمنة للنشر والتوزيع) 2007

– Husserl, E., Ideas. First Book, tr. F. Kersten. Martinus Nijhuff Publishers. 1983

– Husserl, E., The Shorter Logical Investigations. tr. J. N. Findlay. Routledge. 2001

– Derrida, Jacques. Edmund Husserl's Origin of Geometry: An Introduction. tr. John Leavey. University of Nebraska Press. 1989

– Derrida, Jacques. Speech and Phenomena. tr. D. Allison & N. Graver. Northwestern University Press. 1973

– Searle, John. Literary Theory and its Discontents. New Literary Theory. Vol. 25, No. 3 (Summer. 1994)

أطوّفُ ما أطوّفُ ثم آوي

عبدا لله بن سليم الرشيد

السعودية - الرياض

سأصيرُ هذا اليومَ دوحًا وارفًا ... لكنْ أخافُ حماقةَ الحطّابِ؟
فإذنْ سأغدو طائرًا، لكنني ... أخشى حبالةَ صائدٍ جَوَّابِ
لِمَ لا أصيرُ إذنْ مكانًا شاردًا؟ ... فبِمَ اعتذاريَ إن حَضَنتُ ذئابي؟
حسنًا، أظلُّ كما أنا، أوَ لستُ في ... هذا الوجودِ لُبابةَ الأحقابِ؟
لكنْ أخافُ ضِباعَ نفسيَ إنها ... هاجتْ تسنُّ حَدائدَ الأنيابِ

❋❋❋

إني ابنُ آدمَ مُذْ لبستُ خطيئتي ... وأنا أمزِّقُ في العراءِ ثيابي
عُريانَ إلا من يدٍ مكسوَّةٍ ... موتًا وإلا من دمٍ كذّابِ
أنا هذه البيداءُ، يدفنُ شوكَها ... وجهي، ويغري التيهَ طَعمُ سرابي
ويمُجُّني اليبَسُ القديمُ سُلافةً ... سوداءَ غيرَ سُلالةِ الأعنابِ
هيّأتُ للغادي إدامًا فاتكًا ... وعزفتُ للساري لُحونَ تَبابِ
ونسجتُ قهقهةَ المسالكِ غُولةً ... وتربَّصتْ بالصبحِ ظلمةُ غابي
وسقيتُ تاريخَ المَصارعِ قصتي ... حتى تورّم بالدماءِ كتابي

❋❋❋

يا نفسيَ الشَّعْثاءَ، ما ليَ مهربٌ ... إلا إليكِ، وإن خَنقتُ صوابي
هاتي نقائصَكِ الملاحَ، وغلّقي ... من دونِ أحداقِ المنى أبوابي